في الادب الالماني المعاصر

القوة « يود زوس »

بقلم

الكاتب الالماني المعاصر « ليون فيختفانجر »

Power — "Jud Süss" — By Lion Feuchtwanger

تعليق وتلخيص

﴿الادب الالماني الحديث﴾ : امتعش الادب الالماني في السنوات الاخيرة انتعاشاً رائعاً فاتجهت نحوه الانظار ، وعنيت بأمره الصحف والمجلات الادبية في انجلترا وامريكا ، وأصبحت أسماء « فيختفانجر » و« توماس مان » و« فرانس فيرفل » و« فاسرمان » و« شنتزلر » و« اميل لدفج » و« ريمارك » و« ارنولد زفيج » وأندادهم من ادباء الالمان المعاصرين ، نجوماً لامعة في سماء الادب العالمي الحديث ، يعتدُّ بها ، ويحسب حسابها وتذكر في معارض النقد والاستشهاد بالخير الكثير ، ويعالجها النقد الادبي الحديث في شيء كثير من الثناء والاعجاب . وليس بالغريب ان ينهض الادب الالماني هذه النهضة ، وينبع هذا الينابيع ، بعد تلك المجزرة البشرية الهائلة التي اودت بآلاف النفوس ، وزعزعت ملايين الارواح . وكان لالمانيا من كل ذلك النصيب الاكبر والحظ الاوفر ، وليس شك ، أن ليس هنالك اقدر من الحروب وهولها على ابتعاث الرواقد ، وزخر مكامن الاحساس ، وتنبيه الخواطر ، وشحذ الاذهان والمشاعر . واذا كان للحروب سوءاتها المعروفة فليس اقلَّ من ان يذكر لها فضلها ، وجزيل اثرها ، في تبديل قيم الاشياء ومقاييسها ، وحفزها لعبقريات الفنون والآداب ، تخلق خلقها ، وتسبح سبحها ، وتبدع من الصور والالوان ما لم يكن في خاطر ولا وجدان !

بمَ يمتاز الادب الالماني اذاً ؟ وما سرُّ كل هذا الذيوع والانتشار ؟ . سرُّه ان الادب الالماني الحديث احيى نواحي من الادب جديدة ورجع بالادب الى صحة القوة والاشراق التي كادت ان تضيع بين شذوذ الادب الفرنسي وتحليله النفساني المولع بالميول الشاذة ونواحي الاغراب ، كما ان فيه من الحرارة والصوفية ما لانجده في قصصي الانجليز في الوقت الحاضر — فالقصة الانجليزية في جملتها بطيئة الحركة هادئة — . يمتاز الادب الالماني اذاً بالاشراق ، والتصوير المحذوق ، وصفة « الدرامة » والقوة الدافعة والحركة الزاخرة العنيفة وما تأتي به من اصوات تمتزج فيها القسوة بالرحمة ، والجمال بالقبح ، والاصوات الصاخبة

بالحداة المتصوفة ، وغير هذه وتلك من غباء الحياة وجهلها ، وعلمها وذكائها ، وكل مايتظم تحت تقلب الاطوار ، وينسلك تحت حركة الحياة وصورها الدافقة !

﴿ فن فيختفانجر ﴾ : وفيختفانجر الذي نعالج تلخيص قصته الشهيرة للقراء ، يعد من أساطين الادب الالماني الحديث ، برع في رسم شخوصه واحيائها على الطرس مبلغاً عظيماً ، لا يدانيه في هذه الصفة قصصي معاصر في ما نعرف . وهو يتخذ عادة اطاراً من حوادث التاريخ للقصة ، ثم يعمل فيها خياله ، ويمزج الاثنين في كيات متباينة بجراءة ولوذعية نادرة تدهش القارىء وتستولي على مكان الاعجاب منهُ ، ويمعن بعد ذلك في رسم خططه وطرقه فلا يكتب قصتهُ قبل ان يعرف كل ناحية سوف يعالجها معرفة تامة ، فهو من هذه الناحية في التصميم والتجويد ، الماني صميم ، لا يدخل حادثة او عنصراً في قصصه ، على رغم ضخامتها — الا كان لها الحظ الوافر في تخريج الاثر الواحد الذي يروق ، وطريقته في العرض هي طريقة الفيلم السينائي ، يزحم قصته بمختلف الشخوص والمناظر ، ثم يعرض عليك منها فصلاً فصلاً ، ثم يعاود الكرة على تلك المناظر والشخوص ، فيعرض منها مالم يكن قد عرض ، فاذا انتهت القصة كان القارىء قد عرف تلك المناظر معرفة تامة ، والف اولئك الاشخاص وعرفهم المعرفة كلها — فهو اشبه ما يكون بمصور ، يبتدىء صوراً عدة في وقت واحد ، ثم يروح متنقلاً من الواحدة الى الاخرى « بفرشته » بعد كل حين وآخر ، يعطي هذه نصف ضوء ، وهذه نوراً كاملاً ، وفي اخرى يحكم الظلال والالوان فاذا انتهى من عمله بعد كل هذه الاطوار كان المشاهد امام وحدة فنية كاملة ، يدهش لدقتها ووحدتها رغم كثرة التفصيلات والوحدات ! وانت ربما لا تعرف في بادىء الامر علاقة الشخوص بعضها بالبعض ، فاذا انتهيت من تلاوة القصة بانت لك العلاقة ، وقد تجمعت كلها ، واستكملت خلقها ، فكان فيها من جمال الفن ، وعمل التفكير والتجويد ما لايخرج الا من ذهن عبقري متفوق ! وهو فن في جملته ، يحكم الاصول ، زاخر الصور ، واسع اللوحة قوي الدرامة ، يحكي « الحياة » ذاتها في اندفاع حركته وصخبه !

﴿ القصة ﴾ : وضع المؤلف هذه القصة عام ١٩٢٥م وترجمت الى الانجليزية عام ١٩٢٦م فلقيت من الرواج والتقدير والحديث عنها ما لم تعهده قصة المانية قبلها ، وهي ضخمة الحجم تقع في نحو الخمسمائة صفحة من الورق العريض ، ليس فيها صفحة واحدة باردة او زائدة

يودزوس : شاب يهودي الجنس ، الماني الرعاية ، جميل الطلعة ممشوق القد ، دقيق الملامح . ترمقه النساء باللمح والابتسام ، وهو بجماله جد تياه فخور . وكان يحب ان يقال له ان لك انفاً اغريقيًّا ، وان لك شعراً فاحماً ، وكان لا يفرق في الضحك خوف ان يكون

لذلك أثر في شكل فمه الساحر الجذاب .قد بلغ من العمر أربعين سنة ، وهو في مظهره ابن الثلاثين . اختاره كارل الاسكندر احد امراء الالمان في القرن الثامن عشر رئيساً لحضه، ولكي يقوم بنظام ميزانيته ، ذلك لانهُ بارع في تصريف الاموال وطرق كنزها — ولا عجب فهو يهودي—وكان على نقيضه في الخلق « أبراك لوندنر » يعجب من تبذير «زوس» للمال وحبهِ للظهور ، وهيامه بالاناقة والحياة الرفيعة ، ودواعي القوة الضاحكة وينقده في كل ذلك ، فكان زوس يرده « وما شأن القوة ان لم تستمتع بها » ؟ !

زاره عمه الحاخام «جبرائيل» في يوم من الايام،وهو رجل تقي ورع،مهوب المنظر ، يشاع عنهُ انهُ يقرأ الغيب ويحدث الناس حظوظهم في هذه الحياة ، ولقد كان يتحدث مع زوس وضرورة زيارته لابنته العذراء الجميلة «نايمي» وهي قد كبرت واشتاقت لرؤية والدها—فكان زوس يفر من الجواب . واذا هم في هذا الحديث دخل عليهم كارل الاسكندر ، وطلب من الحاخام جبرائيل ان يقرأ له حظهُ من يده — وبعد قليل من الرفض اخبره بأن هنالك حادثتين—اما اولاهما—فانهُ سوف يصبح وليًّا للعهد قريباً—وأما الاخرى فانهُ لا يبوح بها ! ؟ وماذا يعني البرنس من الاخرى طالما سيصير وليًّا للعهد ! ؟ . . واذا الايام تمر سراعاً ، واذا بكارل الاسكندر قد صار وليًّا للعهد من حيث لا يحتسب ، فقد سقط ولي العهد السابق ميتاً في حفلة راقصة ، وآلت اليهِ ولاية العهد بالضرورة !

فرح زوس بهذا الخبر فرحاً لانهاية له، وعلا نجمهُ، وتألقت قوتهُ التي كان يغشاها،وزاد في فرحهِ وسروره ان «ماري أجوستس» زوجة كارل الاسكندر كانت تحبهُ وتغمره بالهدايا والعطف وترمقهُ بين الاعجاب والحب ، ولمَ لا تحبهُ ؟ ! فقد كان انيقاً جميلاً بسّاماً ،زكي الفؤاد، واري الذكاء، يعرف كيف يصرف الامور، ويجمع الاموال ويشتري اطيب الاشياء بأبخس الاثمان !

لم ترق ولاية كارل الاسكندر أهالي «فتمبرج» ، ولم ترق خاصة « فايسنمي » عضو البرلمان ، ولا أبنته « ماجدلين سيبلي » لما هي عليهِ من تدين وورع . كيف يحكم كارل الاسكندر الكاثوليكي، شعباً بروتستانتياً » ؟ وفي هذا الوقت الزاخر بأسباب الجد، ودواعي السرور لدى «زوس» وكارل الاسكندر ، كان الحاخام «جبرائيل» يبكي مع ابنة « زوس» في ضاحية هادئة بعيداً عن الناس وصخبهم ، يقرأ الانجيل ويحيي حياة طاهرة هادئة،غير ان خياله كان يزور ولي العهد،وينغص على «زوس» صفاءه وهدوءه ومتعة عيشه!

فاذا انتظمت الاحوال ، وحلف كارل الاسكندر يمين الطاعة امام الوزراء ورجال البرلمان ، أنصرف هؤلاء دهشين من غطرسة هذا الامير وكبريائه،واعتداده بنفسه ووقاحته! ويتذمر الناس بعد قليل ويشكون من فداحة الضرائب، وسوء الحالة الاقتصادية وينقمون

ليون فوختفانجر

نقدّم الى قرّاء « المقتطف » كاتبين . احدهما ليون فوختفانجر احد أئمة الادب الالماني الحديث وفي هذه المقالة نبذة موجزة عنهُ . والثاني هو الاديب محمد معاوية نور الذي خص لهُ رواية « القوة » ووعد بأن يواصل المقتطف بخلاصاتهِ لروائع الادب الالماني والسكندينافي الحديث. وهي خدمة جليلة يؤديها للادب العربي الحديث

بنوع خاص على زوس، لكثرة الضرائب التي فرضها على الاهالي . ولي الحق لم يكن كارل الاسكندر هو الحاكم، وانما كان «زوس» هو الكل في الكل ، فقد وكل اليه ولي العهد، ثقته فيه وحبه اياه ، سياسة الدولة المالية. فناء زوس بهذه القوة، وصار يظهرها ويؤكدها في كل حين. فاقتنى له داراً فخمة لم تعهدها المدينة من قبل وزانها بأفخر الرياش، وحلاها بالتماثيل والدمى، وزرع في حديقة داره من الازاهير افوحها اريجاً ، وأفتنها لعين والخاطر . وكانت داره تزدحم بطلاب الاغراض . ورجال الحكومة والبرلمان . وأي حكومة وأي برلمان ! انهُ هو الشيء المهم، حتى لقد كانت مقابلته اعسر منالاً من مقابلة ولي العهد نفسه ، غير أنهُ وان كان لزوس كل هذا المجد والقوة ، فانهُ لم يكن له عنوان ذلك واسمه ، ذلك لان قوانين المملكة لا تسمح لليهود بتقلد مناصب الدولة، فاقتنع زوس موقتاً بالقوة دون عنوانها ، وبالمجد دون اسمه ، وكان يقهر البرلمان والوزارة دوماً في مشروعاته المالية . ويخرج ظافراً بما اوتيه من لباقة ولوذعية ، فانه كان يعرف كيف يقرب الانصار ويستعين بهم ، وكيف يشتت الخصوم ويبيدهم ! ... فاشتدت كراهية الشعب له وصاروا ينادون في الطرقات العامة « لقد كانت عاهر تحكم في عصر الامير السابق ، والآن الحكم ليهودي » ! !

احيا زوس حفلة ساهرة ، وتفنن فيها ماشاءت عبقريته من الوان السرور، وضروب اللذة، ودعا اليها ولي العهد، ووزراء الدولة، ورجال البرلمان وكل كبير في القوم وعظيم ، ووقف هو نجمها اللامع، يستقبل الزائرين ويدير الحفل فكان متجه انظار الجميع، ومبغى النواني من النساء !

كانت «ماجدلين سيبلي» بنت «قايسني» عضو البرلمان، مدعوة هي الاخرى الى تلك الحفلة الانيقة — وهي فتاة بارعة الجمال ، ساحرة العينين ، مديدة القامة ، زادها جمالاً وفتنة ان لها ملاح الصبيان ، ذات عضل مفتول . فقابلها زوس وتحدث معها ، لكنهُ لم يشعر بالاضطراب يخالجه قط مثل ما اضطرب في حضرة هاته الفتاة الساحرة ، ولم تكن لديه الاجوبة الحاضرة لاسئلتها ، وهو من تعرف لباقة وظرفاً ، كأنما اخذ كل ذلك عن صالونات باريس الارستقراطية . قالت له في منتهى حديثها معهُ « انت تعرف جيداً انني ما اتيت الى هنا الآ لاصرعك ، وأعود بك الى الدين القويم » ! — تعني المسيحية

لم ينم «زوس» كثيراً بأحلامه وآماله مع ماجدلين سيبلي حتى رأى ان كارل الاسكندر قد حول نظراته نحوها ، واشتهاها ، وظن ان «زوس» قد اتى بها في تلك الحفلة ليسره ويخدمه ! واذا كانت ماجدلين ترتاح على انفراد في حجرة في دار زوس ، ترك كارل الاسكندر الحفلة ودخل عليها ، فقطع عليها سكينتها وراحتها وكان له معها عراك وشأن آخر ! وخرج ذلك الامير الضخم الجسم سكران بنشوة الخمر والجسد ! فلم يرق ذلك طبعاً زوس

وقضى بقية الحفلة وقد فارقهُ السرور والانشراح ، وكان في ابتسامته تمثيل ظاهر ! . . أيبتدي ولي العهد على من اراد ان تكون له وحده ؟ ولكن ، ليرقَ اذاً على حساب تلك الحادثة !

علا نجم « فايسنمي » بعد هذه الحادثة في البرلمان ، وتقرب الى كارل الاسكندر ؛ بعد ان اصبحت ماجدلين سيبلي من نساء كارل الاسكندر وفي قصره — وطلب «زوس» ان يكون له اسم الوظيفة من ولي العهد ايضاً ، غير ان البرلمان قد وقف حجر عثرة امام هذا الطلب . ولما لم ينجح «زوس» في مبتغاه طلب من كارل الاسكندر عطلة يستريح فيها من عناء العمل ، فكان له ذلك ، وراح طائفاً عواصم اوربا سائحاً خليًّا !

ساءت ميزانية كارل الاسكندر ، واختل نظام العمل في الحكومة ، في غياب زوس . وذلك ما اراده زوس ! حتى اذا شعر كارل الاسكندر بقدرته منحهُ ما يريد مهما رفض البرلمان ! — دعا كارل الاسكندر زوس من رحلته بالمجيء لانهُ لا يستطيع أن يعمل بغيره ، وقد علم زوس في اثناء رحلته من والدته أن والده لم يكن اليهودي «زوس» وانما هو «هيدرزدروف» القيلد مارشال المسيحي المشهور . واذاً فهو ليس يهودي ؟ واذاً فهو قد ورث جماله وخلقه الارستقراطي من والده المسيحي ! ماذا يصنع الآن ؟ أيعلن جنسيته الحقة ؟ ويكون له المنصب واللقب الذي يريد ؟ لا ! وما فضل الرجل المسيحي ان كان وزيراً ! وهنالك آلاف من الوزراء المسيحيين ! فليبق اذاً يهوديًّا وليرقَ رغم ذلك ، بل من أجل ذلك ! فان في ذلك للمجدُ كل المجد ، وليس هنالك يهودي واحد بلغ مبلغهُ من العظمة والقوة في كل تاريخ المانيا ! فليكن هو ذلك اليهودي ذا الحول والسلطان !

فاذا مضى وقت على هذه الحادثة ، فهنالك مؤامرة يشترك فيها ولي العهد مع بعض وزرائه لقلب دين المملكة من البروتستانتية الى الكاثوليكية ، غير ان زوس لم يشترك في هذه المؤامرة لسبب خاص ، واذ كان يتم مخلوة هادئة مع ابنته « نايمه » في ضاحية «هيرسو» اذا بكتاب من سكرتيره يخبره فيه ان الحكومة قد حجزت على دفاتره وحساباته بتهمة الخيانة ! لم يجزع «زوس» لهذا الخبر بل ظل هادئاً يفكر في فرصة حسنة لسحق اعدائه سحقاً او ترك كل ذلك والعيش مع ابنته عيشة هادئة . فاراد ان يتحدى القضاء وطلب من كارل الاسكندر بكل هدوء وادب استقالته ! اضطرب الاسكندر لهذا الطلب المفاجيء . ولقد كان هو والوزراء ينتظرون من «زوس» الذلق اللسان ، الرائع الدهاء ، ان يدافع عن نفسه . ولكنهُ لم يفعل شيئاً من ذلك ! لم ير كارل الاسكندر تجاه طلب زوس سوى ان تعاد اليه اوراقه ودفاتره ، وان يعطى اللقب الرسمي الذي كان يطلبهُ ، وكان لهُ كل ذلك ! وبقيت العلاقات بين زوس وكارل الاسكندر يشوبها شيء من الخوف والتحوط بين الواحد

والآخر ، وظهر زوس بعد هذه الحادثة بمظهر الباطش الشديد ، يحق اعداءه سخطاً أليماً فامتزج خلقه بشيء من الصلابة والشراسة ، بينما كان « فايسنسي » يتقرب في هذا الوقت من ولي العهد ويتملقه ، ويلقى عنده الحظوة والقبول !

واذ كان لولي العهد عادة الصيد والقنص ، فقد دعا « فايسنسي » ولي العهد وحاشيته الى الصيد في ناحية «هيرسو» حيث داره ، وأعد لذلك معدات الراحة واسباب اللذة ، ذلك لانه لا يقصر عن عمل اي شيء يسر مولاه ويقربه منه ، واذا هم بين طعام وشراب اعلن « فايسنسي » ان له مفاجأة طريفة اعدها لولي العهد في الغد ، فسر كارل الاسكندر منه وأطراه — فاذا كان الصباح اقتادهم الى حيث بيت الحاخام جيرائيل وبنت زوس « نايمه » وهو بيت يقع بعيداً عن المدينة وسط الحراج ، فدخلوه من غير كبير عناء لان الحاخام كان في تطوافه للعبادة والتأمل ! سُحر كارل الاسكندر لما رأى « نايمه » وجمالها الفاتن ، فقد رأوا فيها جمالاً لم يعهدوه في غير بنات الخرافة والخيال . واكتظ عقل كارل الاسكندر بجمالها وأُخذ بها . فاذا خرجوا ، بعد عبارات التحية والسلام الى مكان الصيد ، ابدى كارل الاسكندر رغبته في ان يصطاد وحده . وهكذا ترك جماعته ، وقفل راجعاً الى حيث تسكن « نايمه » واذا به يقفز الى غرفتها مثل الوحش الكاسر ، واذا البنت وقد تملكها الخوف ، وتقلصت شفتاها ، ولم يمكن من رجلها وخونها العبارات التي قالها كارل الاسكندر ، فهربت من الغرفة واخذت سلالم الدار فلم يعد يراها . واذا هي منبسطة بين الازاهير خارج الدار ، واذا بها قد فارقت الحياة ! لم يهتم كارل الاسكندر كثيراً ولو انه شعر بفداحة إثمه !.. عاد الحاخام جيرائيل ، وارسل يدعو زوس من غير ان يحدثه بموت ابنته . وعاد زوس مضطرب الوجدان ، متقاص الاعصاب ، لان شكاً قد خامره في هذه الدعوة العاجلة ولم يطمئن وجله . فاذا الشموع مضاءة في البيت ، واذا ابنته قد فارقت الحياة ، فقال لفوره « وهل كان ولي العهد السبب في موتها ؟ » — « انت المجرم الآثم في قتلها » كان جواب الحاخام ! وجاء من بعد ذلك كارل الاسكندر فرأى زوس على حالة رثة ، كثير الجزع والحزن ، فاعتذر واطال في الاعتذار ، وافاض في عبارات العطف والتشجيع . وقال انه لم يكن يظن انها تسيء فهم مزح بريء مثل مزحه !

« نعم . ومن كان يظن ! » قالها زوس في شيء كثير من الالم والموجدة !

تطورت نفسية « زوس » بعد هذه الحادثة تطوراً هائلاً ، فازداد صلفه وكبرياؤه حتى على ولي العهد نفسه . يشتري له الاشياء بضعف اثمانها ، ويزدري الوزراء وينكل بهم انتقاماً لابنته ، وظل يعمل في انتهاز الفرصة للانتقام الاكبر . اتضح كل ذلك لكارل

الاسكندر ، لكنهُ شعر بان قوة خفية تربطهُ مع ذلك اليهودي ، وانهُ لا يستطيع الفكاك والتخلص منهُ ، فكان « زوس » كالكابوس لا يستطيع له ردًّا ، رغماً عن المصانعة والمجاملة الظاهرة بينهما . ظل كارل الاسكندر يحتاط ويتوجس شرًّا من زوس . ودخل « زوس » اخيراً المؤامرة « الكاثوليكية » ليبلغ ما يريده عن ذلك الطريق . وكان الحاخام جبراثيل يقول لهُ المرة والثانية « ان طريقك هذا زائف يا زوس ! ولو انك الآن يظهر عليك الالم والشجو الذي يميز اليهود » . ولكن كل ذلك اثير جدوى . فقد ظل زوس يعمل لارضاء ضميره وارضاء ابنته كما يعتقد ، فاقترح على ولي العهد اقتراحات ذكية ، اخذ بها كارل الاسكندر ، منها القبض على زعماء المعارضة واستمالة الجيش لاخضاع الاهالي ! واخذ كارل الاسكندر يخطة « زوس » . غير انهُ قد وضع اسم زوس في القائمة التي اعدها « زوس » لمن يقبض عليهم ! ؟ وعلم « زوس » اخيراً من الخادم بذلك ، فأخذ عدتهُ لاغتيال كارل الاسكندر قبل التاريخ المعد لتنفيذ خطته ! . وهكذا نجدهُ واقفاً حجر عثرة امام امير كاثوليكي يود تغيير دين شعبه ، ويتآمر ضد ولي العهد حيث يحسب الناس انهُ يعمل معهُ !

وفي مساء اليوم الذي أعده كارل الاسكندر للقبض على المعارضين وتنفيذ خططه ، دخل رجلان غرفة كارل الاسكندر الخصوصية بمعونة خادم ولي العهد التركي ، والذي كان يحب زوس ويأتمر بأمره . ثم دخل كارل الاسكندر متجهاً نحو غرفة نومه ليستمتع باحدى الغواني اللاتي يملأن قصره ، فاذا هو أمام هذين الشخصين ، فصرخ في وجههما وثار ثائره فأفهماه ان خططه سخيفة وأنها مرفوضة ، وقصّا عليهِ كل حرف منها ، وان شيئاً من ذلك لن يحصل بأمر ولي العهد نفسه . فصرخ لتلك الباغتة وخرَّ صريعاً لساعته على الارض ! ومن ذا يا ترى يعلم كل ذلك غير « زوس » ؟ ! وظل نفسه يتردد بين الموت والحياة حتى دخل عليهِ زوس فأجلسهُ على مقعد ، بعد ان هرب الرجلان من القصر ، وصار يخاطبهُ ويقول « يا أغبى الاغبياء ! ايها الوحش . . مغفل انت حقًّا يا كارل الاسكندر ، تود أن لا تسمع ؟ لا ! . . يجب ان تسمع ، وان تسمع الى النهاية ! تود ان تقفل اذنيك ؟ لا ! لا اسمح لك بذلك ايضاً . . تود ان تصلي وأن تطلب الرحمة والغفران ؟ ! لا ! لا اسمح لك بذلك ولا اسمح لك بأن تموت قبل ان تسمعني الى النهاية ! . . ها أنذا اتكلم بكل خفوت وتؤدة ، ولكن صوتي قد ملأ اذنيك وقلبك الخالي من الحياء ! يجب ان تبقى وان تسمعني الى النهاية ! ان ابنتي ماتت وأنت تجري من ورائها كالوحش ايها الوغد اللئيم . وكانت رائحة فمك النتنة فوق عنقها الطاهر ، ولكنها عرفت كيف تهزأ بك ، فتلقتها ملائكة الرحمن بين احضانها ! . . وما انت ؟ ! انت الآن « كومة » من اللحم مضحكة ،

مليئة بالسخر ، وانك لتهزأ الآن من نفسك ، ويهزأ منك الناس اجمعون ! وما احلامك في المجد من غيري انا ؟ انا الذي اوحيتها لك يا اكبر المغفلين ! لم تكن انت من قبلي شيئاً .. انا الذي اوقنتك على قدميك ، ثم سويتك انساناً ؟ ! . . ايه ايها البرنس البطل ، يا لويس الرابع عشر الالماني ! .. انت ، انت ايها النبي المفضل ! »

وشعر زوس بشيء من الراحة بعد هذه الخطبة ، اذ ظن انهُ قد ارضى ابنتهُ وانتقم لها ، وسحق روح كارل الاسكندر سحقاً ! ثم جاء الاطباء فقرروا انهُ مات من جراء مرض الصدر ، ووجم زعماء المؤامرة الكاثوليكية . ولم يعرفوا ما الذي يعملون ، فتقدم اليهم «زوس» هازئاً ضاحكاً . وقال لهم «اقبضوا عليَّ أنا لتحلوا المشكل الذي انتم فيه» وهكذا قدم نفسه للسجن مختاراً بينما كان الشعب يتلقى خبر موت كارل الاسكندر بالتهاني والبشائر ، ولم يدر احد ان «زوس» هو السبب في موته ! وتولى الامارة رودلف الاسكندر بعد ذلك ، وذاق «زوس» كل الوان العسف والعذاب في السجن من اعدائه الاقدمين ، ولم يعرف الجمهور الثائر المنادي بشنق اليهودي ، انهُ هو اليهودي الذي منع كارل الاسكندر من ان يحيل شعبهُ وتستاتياً الى الدين الكاثوليكي ، وانهُ هو اليهودي الذي قتله ، وانهُ هو اليهودي الذي قدم نفسهُ مختاراً الى الموت !

لم تجد المحكمة التي شكلت لمحاكمته جرماً قانونياً يعاقب عليه ، رغم الوقت الطويل الذي صرفتهُ لاثبات التهمة عليه في تبديد اموال الدولة . ومع كل ذلك اصدرت المحكمة حكمها بأدانته ، وشنقه ، تحت تأثير العداء والحقد القديم ، وتنفيذاً لرغبة الجماهير الجاهلة المتادية ليل مساء « اليهودي للشنق » ... لم يدر الجمهور ان زوس القديم قد مات ، وان هذا زوس جديد ، عمل لخيرهم ، وقتل حاكمهم المستبد ، ومنع دينهم من أن يبدل !

... وكان يوم اعدامه يوماً مشهوداً ، كما كان يوم مجده . خرجت المدينة كلها تودع ذلك الذي اعتلى قمة المجد والسلطان والجمال ، فكان اسمهُ على كل لسان ، وهو الآن يهوي سريعاً كما ارتقى ، ويكون في كلتا الحالتين مظهراً للغريب الرائع المظهر !

... ويوم راح اليهود يدفنون جثة «زوس» ، قالوا في صوت واحد كما قالوا يوم دفنوا ابنته ناعمة « باطلة هي الدنيا ، وزائلة كالرياح . الله وحده الحي الذي لا يموت ، آلهة بني اسرائيل — يهواه ! — » ثم أخذوا حفنة من التراب ورموها وراء ظهورهم وقالوا «نحن كالحشائش التي تيبس » ثم قالوا « واننا لمن التراب » ! !

... هكذا تنتهي هذه المأساة البليغة — قوية عنيفة — كما ابتدأت !

وأن القارىء ليرى في شخصية «زوس» و «كارل الاسكندر» والحاخام «جبرائيل» و «نايمة» و «ماجدلين سيبلي» و «فايسنمي» و «اسحاق لوندنر» وخلافهم ممن تزخر بهم هذه القصة متناقضات رائعة ، تزخر بها الحياة ، وينضح بها اباء الفناء !

معاوية محمد نور